﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: 64 - 66]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من وسيلةِ الإقناعِ إلى أوامرِ التَّكليفِ منهجُ القرآنِ في البناءِ والنُّهوضِ

لمّا وعدهُ سبحانه بالنَّصرِ عند مخادعةِ الأعداءِ؛ وعدَهُ بالنَّصرِ والظَّفرِ في هذهِ الآيةِ مطلقًا على جميعِ التَّقديرات، وعلى هذا الوجهِ لا يلزمُ حصولُ التَّكرارِ؛ لأنَّ المعنى في الآيةِ الأولى: إن أرادوا خداعَك؛ كفاك اللّه أمرَهم، والمعنى في هذه الآية عامٌّ في كلِّ ما يُحتاجُ إليهِ في الدّين والدُّنيا[1]، فمناسبةُ هذه الآياتِ للآياتِ السّابقةِ هو تثبيتُ التَّوكُّل على اللّهِ تعالى والانتقالُ من خطابِ الإقناعِ إلى خطابِ التَّكليفِ، وقد وقعَ قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كواسطةِ العقدِ ودرَّةِ القلادةِ بين السّابقِ واللّاحقِ، لأنَّه خطابٌ تكميليٌّ للسّابقِ في دفعِ ما قد يُحدثُهُ الخاطرُ من فكرٍ، وخطابٌ تمهيديٌّ للّاحقِ في تحريضِ المؤمنين على القتالِ، وهو القيامُ بما يُمليه واجبُ العملِ، بقطعِ النَّظر عن وقوعِ الخديعةِ أو عدمها، فمَوْقِعُ هذه الآيَةِ بَعْدَ الَّتي قَبْلَها كاملُ الاتِّساقِ والانْتِظامِ، فإنَّهُ لمّا أخْبَرَهُ بأنَّهُ حَسْبُهُ وكافيهِ، وبيَّنَ ذلك بأنَّهُ أيَّدَهُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/156.

بنَصْرِه فيما مَضَى وبالمُؤْمِنينَ، فقد صارَ لِلْمُؤْمِنينَ حَظٌّ في كِفايَةِ اللّه تعالى رَسولَهُ ﷺ فلا جَرَمَ أَنْتَجَ ذلك أنَّ حَسْبَهُ اللّه والمُؤْمِنونَ، فكانَتْ جُمْلَةُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ كالفَذْلَكَةِ لِلْجُمْلَةِ الَّتي قَبْلَها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَرِّضِ﴾: تدلُّ مادَّةُ الحاءِ والرّاءِ والضّادِ على الذَّهابِ والتَّلَفِ والهلاك والضَّعفِ وشبه ذلك، كأنَّهُ في الأصلِ إزالةُ الحرض، والحَرَض وهو المشرفُ على الهلاك[2]، والتَّحريضُ الحثُّ على الشَّيء بكثرةِ التَّزيين وتسهيلِ الخَطْبِ فيه، فهو حثُّ الآخرين على الشَّيء حثًّا يعلمُ معه أنَّهُ حارضٌ إن تخلَّفَ عنه، والحارضُ الَّذي قدْ قارَبَ الهلاكَ؛ فالتَّحريضُ هو إقناعُ المحرَّضِ على فعلِ أمرٍ إن لم يفعلْهُ؛ وقعَ في الهلاكِ، وقد وردت هذه اللَّفظةُ في موضعين آخرين من القرآنِ سوى هذا الموضعِ في قوله: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء: 84] وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ [يوسف: 85].

2) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: يدلُّ أصلُ المادَّةِ على إدراكِ الشَّيءِ والعلمِ بهِ، والفقهُ اصطلاحًا: التَّوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلمِ، والفقهُ: هو العلمُ بأحكامِ الشَّريعةِ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المؤمنُ منتصرٌ بأمرِ اللهِ ومعيّتِهِ لا بقوّتِهِ وكثرتِه

تُخاطِبُ الآياتُ النَّبيَّ ﷺ آمرةً بأن يحثَّ المؤمنينَ على القتالِ بصبرٍ وجلدٍ، من أجلِ إحقاقِ الحقِّ وإبطالِ الباطلِ، فإنَّ وجودَ عشرينَ رجلًا صابرًا يغلبونَ - بسببِ إيمانِهم وصبرِهم - مئتينِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/65.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حرض)، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/423.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فقه).

من الكافرين، وإن توجدْ مئةٌ تغلبْ ألفًا، وبعد أن شقَّ على المؤمنينَ الاستمرارُ على مواجهةِ الأعداءِ الكثيرين، ولم تبقَ هناك ضرورةٌ لدوام هذا الحكمِ لكثرةِ عددهم؛ خفَّف اللّٰهُ عنهم رحمةً بهم، فأوجبَ عليهم أن يثبتَ الواحدُ منهم أمامَ اثنين من أعدائِهم بدلًا من عشرةٍ، واللّٰه تعالى مع الصّابرين بتأييدِه ورعايتِه ونصرِه، وللإشارةِ إلى تأييدِهم، وأنَّهم منصورونَ حتمًا؛ لأنَّ من كان اللّٰه معه لا يغلب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ:

النَّبيُّ هو قدوةُ الأمَّـةِ وخطابُهُ خطابٌ لها

قولُهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ بالإقْبالِ على خِطابِ الرَّسولِ ﷺ بأوامرَ وتَعاليمَ عَظيمَةٍ، مَهَّدَ لِقَبولِها وتَسْهيلِها بما مَضَى مِنَ التَّذْكيرِ بعَجيبِ صُنْعِ اللّٰه والامْتِنانِ بعِنايَتِه برَسولِه والمُؤْمِنينَ، وإظْهارِ أنَّ النَّجاحَ والخَيْرَ في طاعَتِه وطاعَةِ اللّٰه، مِن أوَّلِ السّورَةِ إلى هُنا[2]، فهذه الآيةُ هي خلاصةٌ لما تقدَّم، جاء الخطابُ فيها للنَّبيِّ صراحةً.

بلاغةُ البَدْءِ بحرفِي النِّداءِ والتَّنبيهِ:

نداءُ اللّٰه للنَّبيِّ دليلُ عِظَمِ ما سيُلقى من القولِ

تصديرُ الجملةِ بحرفِي النِّداءِ والتَّنبيهِ في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تنبيهٌ على مزيدِ الاعتناءِ بمضمونها[3]، فإنَّ من بلاغةِ القرآنِ العنايةَ بالمخاطَبِ بتنبيهِه على مضامينِ المعاني، فالنِّداءُ إن كان لنداءِ البعيدِ - كما هو الأغلبُ عند النَّحويّين[4] - فإنَّ لاستعمالِ (يا) في نداءِ القريبِ أغراضًا بيانيَّةً، وحريٌّ أن يُتنبَّهَ لها، ونداءُ اللّٰه تعالى للمؤمنين لا يُتصوَّرُ فيه إلّا أن يكونَ من إنزالِ القريبِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/152 - 154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/65.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(4) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/429.

منزلةَ البعيدِ ليتنبَّهوا، ولا يغفلوا، وهو مظهرٌ من مظاهرِ التَّوكيدِ، وفي نداءِ النَّبيِّ بهذا الحرفِ ما فيهِ من إعلاءٍ لشأنهِ ورفعٍ لقدرهِ ولقدرِ مناديهِ، وهناك توكيدٌ من نوعٍ آخرَ في استعمالِ (أيٍّ) التي قالوا عنها: إنَّها تأتي في حالاتٍ محدَّدةٍ منها: أن تكونَ وصلةً لنداء المُعرَّفِ بأل[1]، فهنا مظهرٌ آخرُ من مظاهرِ التَّوكيدِ في ذكرِ المنادى مرَّتينِ: مرَّةً بكونهِ منادًى أصيلًا، ومرَّةً أخرى بذكرهِ بدلًا أو صفةً بعد قولهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾، وهناك مظهرٌ آخرُ من مظاهرِ التَّوكيدِ في هذه الجملةِ في مجيءِ (الهاء) الَّتي تأتي للتَّنبيهِ، على أنَّها نعتٌ آخر للمنادى لكونهِ هو المقصودُ بالنِّداءِ[2].

غَرضُ النِّداءِ بوصفِ النُّبوَّةِ ومعنى (أل) فيه:

رفعةُ النَّبيِّ قائدًا وقدوةً رفعةٌ لأمَّتِه

التَّعريفُ في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ للعهدِ، ولا ينصرفُ الذِّهنُ إلّا إلى النَّبيِّ ﷺ وإيراده ﷺ بعنوانِ النُّبوَّةِ للإشعارِ بعلّيَّتها للحكم[3]، وتَخْصيصُ النَّبيِّ بهذه الكِفايَةِ لِتَشْريفِ مَقامِه بأنَّ اللهَ يَكْفي الأُمَّةَ لأجْلِه[4]، وفي ندائهِ ﷺ بوصف النُّبوَّةِ دونَ الرِّسالةِ ما فيه من معاني الرِّفعةِ والعلوِّ الَّتي نجدُها في معاني (نبو) ودلالاتها على العلوِّ والارتفاع، وهذا ما نلحظهُ في نداءاتِ النَّبيِّ ﷺ بوصف النُّبوَّةِ في القرآنِ أنَّها تأتي بوصفهِ القائدَ والقدوةَ للمؤمنين، بخلافِ النِّداءات له بوصفِ الرِّسالةِ حيثُ تأتي على أنَّها النِّداءُ بالوصفِ الوظيفيِّ له ﷺ.

بلاغةُ تعريفِ الجزأين:

الإلهابُ والتَّهييجُ توطئةٌ لتحريضِ المؤمنين على القتالِ

عُرِّف الطَّرفانِ في قولِه تعالى: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ ليكونَ المقدَّمُ مسندًا إليهِ، والمؤخَّر مسندًا، وهذا ممّا يجوزُ فيه الإعرابُ العكسيُّ عند النُّحاةِ، لكنَّ التزامَ ترتيبِ النَّظمِ يحملنا على جعلِ المقدَّمِ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/92.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 2/402.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/65.

مبتدأً، والمؤخَّرِ خبرًا، وهو من الحملِ على المواطأةِ، وهو يُفيدُ القصرَ، وتقديمُ ﴿حَسۡبُكَ﴾ فيه معنى الإلهابِ والتَّهييجِ بتكريرِ هذه الجملةِ، بهذا النَّظم، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يعلمُ أنَّ اللّٰه كافيهِ، وإخبارُه بذلك مع التَّكرار أفادَ إلهابَهُ وتهييجَهُ توطئةً لتكليفهِ بتحريضِ المؤمنين على القتالِ.

تعيينُ المعطوفِ عليه وبراعةُ إعرابِ ﴿وَمَنِ﴾:

أتـبـاعُ الـنَّـبـيِّ مكفيّون من اللهِ تـعـالى ابـتـداءً ليـكـفـوا الـنَّـبـيَّ انتهاءً

استُعملَتْ ﴿وَمَنِ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للدَّلالةِ على العموم، فيدخلُ فيها جميعُ المتَّبعين من المؤمنين نصًّا، وتحتملُ أن تكون ﴿وَمَنِ﴾ في محلِّ نصبٍ، وفي محلِّ رفعٍ، فعلى النَّصبِ تكون معطوفةً على الكافِ في قوله: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾، فالكافُ مجرورةٌ لفظًا منصوبةٌ محلًّا على أنَّها مفعولٌ به؛ لأنَّ في ﴿حَسۡبُكَ﴾ معنًى واقعًا من الفعل: رددناهُ، ويصير المعنى: يكفيكَ اللّٰه، ويكفي من اتَّبعكَ، و﴿وَمَنِ﴾ معطوفةٌ على الكافِ، وعلى الرَّفعِ تكون معطوفةً على لفظِ الجلالةِ، ويكون المعنى: يكفيك اللّٰه، ويكفيك أتباعُك من المؤمنينَ[1].

والإعرابانِ صحيحانِ صنعةً ودلالةً، فالمعنى صحيحٌ على النَّصبِ؛ إذ اللّٰهُ يكفي نبيَّه والمؤمنين، وكذلكَ على الرَّفعِ؛ إذ جعلَ اللّٰهُ المؤمنين كافين النَّبيَّ ﷺ والكفايةُ ابتداءً من اللّٰهِ للمؤمنين؛ لتتحقَّقَ لنبيِّه ﷺ فبأيِّ الإعرابين أخذتَ؛ فالمعنى صحيحٌ.

سرُّ استعمالِ مفردةِ الاتِّباع:

شـرطُ الاتِّـبـاعِ الإيمانُ والطّاعةُ في نصرةِ النَّبيِّ ﷺ

استُعملتْ مفردةُ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دونَ أن يقولَ: (ومن آمن بك) أو (ومن نصرك) وغيرها من المحتملاتِ؛ لبيانِ أنَّ كفايةَ النَّبيِّ بمن معَهُ هي بكونِهم أتباعًا له، ومقتضى الاتِّباع الإيمانُ والطّاعةُ والنُّصرة، والتَّعبيرُ بالاتِّباعِ دون

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/417، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/423، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/222.

التَّبع يدلُّ على اللُّحوقِ، فإنَّ بناءَ (تَبِعَ) يدلُّ على القفوِ، وبناء (اتَّبعَ) يدلُّ على اللُّحوقِ[1]، فـ (تبع) أشدُّ دلالةً في التُّلوِّ والقفوِ من (اتَّبع)، والمطلوبُ هو عمومُ الاتِّباعِ، فاستُعمل الاتِّباعُ لما فيهِ من مراعاةِ حالِ المُتَّبعين، فهم على أحوالٍ متباينةٍ، ودرجاتٍ مختلفةٍ، لكنَّهم جميعًا متَّصفون بالاتِّباعِ، وهو المطلوبُ في هذا المقامِ.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ والتَّعريفِ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

يُحمَلُ التَّعريفُ في لفظِ: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إمّا على تعريفِ العهدِ؛ إذا كان المقصودُ بالمؤمنين أصحابَ النَّبيِّ ﷺ وتكونُ ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّةً، وإمّا على تعريف الجنس؛ إذا كان المقصودُ عمومَ المؤمنين المتَّبعين إلى قيامِ السّاعةِ، وتكون ﴿مِنَ﴾ بيانيَّةً[2]، والصَّحيح أنَّها للجنسِ، ويدخل العهدُ دخولًا أوَّليًّا، فاللهُ ناصرٌ نبيَّهُ بأصحابِهِ على وجه الخصوصِ، وبالمؤمنين عامَّةً على جعلِ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ منصوبةً، أو أنَّ المُتَّبعين ينصرون النَّبيَّ ﷺ من الصَّحابةِ خاصَّةً، ومن المؤمنين عامَّةً على جعلِ ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ مرفوعةً كما تقدَّمَ.

يدخلُ في مفهومِ (المؤمنين) الصَّحابةُ دخولًا أوَّليًّا وعمومُ المؤمنين

سرُّ اختيارِ صفةِ الإيمانِ:

اختيرَ وصفُ الإيمانِ في قولِه: ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دونَ الإسلامِ؛ لأمرين اثنين:

الأوَّل: بيانُ أثرِ الإيمانِ في عظائمِ الأمورِ، وكبائرِ الشُّؤونِ، فإنَّ الإيمانَ جذرُ الخيرِ والحقِّ والأمانةِ في القلوبِ، ولذلك آثرَ السّياقُ الإتيانَ بهِ تنبيهًا على علَّةِ العملِ والاستجابةِ لأمرِ اللهِ تعالى في تأييدِ النَّبيِّ ونصرةِ دينِه على الباطلِ، وأفادَ أنَّ الإيمانَ ليس مجرَّدَ اعتقادٍ معرفيٍّ عابرٍ، بل هو تصديقٌ وقولٌ وعملٌ لا ينفكُّ عن صاحبه بحالٍ، فهو يشملُ في هذا السّياق مفهومَ الإسلامِ والإحسانِ وحقائقِ اليقينِ من التَّوكُّلِ عليه والثِّقةِ بهِ في الانتصارِ على الباطلِ.

الإيمانُ يتضمَّنُ الأعمالَ العظيمةَ والمعتقداتِ الرّاسخةَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/43 - 44.

الآخر: لما يتضمَّنهُ وصفُ الإيمانِ من الإيماءِ إلى الخصوصيَّةِ بخلافِ الإسلامِ، فهو يدلُّ على العمومِ، كما قال سبحانه: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14].

تكريرُ الخطابِ ودلالةُ الأمرِ:

تَخريضُ المؤمنينَ على قتالِ أعداءِ اللهِ من متطلَّباتِ النُّبوَّةِ

كُرِّرَ خطابُ النَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ بعد قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بشأنِ المأمورِ به[1]، ولِلتَّنْويهِ بشَأْنِ الكَلامِ الوارِدِ بَعْدَ النِّداءِ، وهذا الكَلامُ في معنى المَقْصِدِ بالنِّسْبَةِ لِلْجُمْلَةِ الَّتي قَبْلَهُ؛ لِأَنَّهُ لَمّا تَكَفَّلَ اللهُ لَهُ الكِفايَةَ، وعَطَفَ المُؤْمِنينَ في إسْنادِ الكِفايَةِ إليهمْ؛ احْتيجَ إلى بَيانِ كَيْفيَّةِ كِفايَتِهم، وتِلْكَ هيَ الكِفايَةُ بالذَّبِّ عَنِ الحَوْزَةِ وقِتالِ أعْداءِ اللهِ[2].

وفي النِّداءِ بلفظِ النُّبوَّةِ ما يشعرُ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ قدوتُهم في ذلك، وأنَّ التَّهيئةَ لقتالِ أعدائِهم هو من متطلَّباتِ هذه النُّبوَّةِ.

غرضُ الأمرِ ومعناه:

معنى الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ﴾ للوجوبِ، ومعناه: بالغ في حثِّهم عليهِ وترغيبهم فيه بكلِّ ما أمكنَ من الأمورِ المرغَّبةِ[3].

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿حَرِّضِ﴾:

التَّحريضُ هو إقناعٌ بالغٌ لدفعِ الهلاكِ عنِ الأمَّةِ

استعملَ النَّظمُ مفردةَ ﴿حَرِّضِ﴾ دونَ مرادِفاتِها؛ لما تتضمَّنُه هذه المفردةُ من معنًى، فالتَّحريضُ هو إقناعُ المحرَّضِ على فعلِ أمرٍ إن لم يفعلْهُ؛ وقعَ في الهلاكِ، فأدَّت هذه المفردةُ معنًى فريدًا: وهو إقناعُ المخاطَبِ غايةَ الإقناعِ وبالغَ البيانِ، بما يجبُ عليه من قتالِ أعداءِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/66.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111.

اللّهِ تعالى وإلّا وقع هو في القتلِ والهلاكِ، ومن هنا يَبينُ التَّناسبُ بين اللَّفظةِ وسياقِ الكلامِ.

معنى التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلۡقِتَالُ﴾:

التَّعريفُ في لفظِ ﴿ٱلۡقِتَالُ﴾ للعهدِ، أي: القتالُ الَّذي يعرفهُ المؤمنونَ في مقاتلةِ أعداءِ الدّين، وليس من شأنِ النَّبيِّ أن يُحرِّضَ الأمَّةَ على أيِّ قتالٍ، إلّا في قتالِ أعداءِ الملَّة الذين يحولون دونَ الدَّعوةِ إلى اللّهِ تعالى فحقيقةُ القتالِ هي في نصرةِ الحقِّ وإنصافِ أهلِه، وردع الباطلِ وهزيمةِ وحِزْبِه.

القتالُ في الإسلامِ لإعلاءِ كلمةِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

لمّا كان عمومُ الجنسِ الذي دلَّ عليهِ تعريفُ القتالِ يقتضي عمومَ الأحوالِ باعتبارِ المقاتَلين، وكان في ذلك إجمالٌ من الأحوال، وقد يكونُ العدوُّ كثيرين، ويكون المؤمنونَ أقلَّ منهم؛ بيَّن هذا الإجمالَ بما جاء بعدها من تفصيلٍ[1]، فقال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ وهو استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الإجمالَ الَّذي سبقها من شأنهِ أن يثيرَ سؤالًا عن الأحوالِ مع تباينِ عددِ العدوِّ، فكأنَّ المعنى: حرِّض المؤمنين على القتالِ بهذه الكيفيَّة[2].

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ بيانٌ مشرقٌ وتوضيحٌ مفلقٌ

نكتةُ استعمالِ ﴿إِن﴾ بدلًا من أدواتِ الشَّرطِ الأخرى:

أتى النَّظمُ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾ لبيانِ أنَّ هذا الاحتمالَ ليس لازمًا، فهو من بابِ التَّمثيل الافتراضيِّ، لا التَّعيين الحتميِّ، وفيه من التَّخفيفِ بطريقِ الإيماءِ ما لا يخفى أثرُهُ على المخاطَبين.

فائدةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

التَّعبيرُ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ في فعلِ الشَّرطِ وجوابه في قولِه تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ﴾ يُفيدُ

استحضارُ الصّورةِ يُخفِّفُ من وطأةِ القتالِ ويُمهِّدُ النَّفسَ لها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/66.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/66.

استحضارَ الصّورةِ في ذهنِ السّامعِ، وهو مناسبٌ للسّياقِ، فإنَّ المخاطَبين يجولُ في خاطرِهم ذلك الافتراضُ العدديُّ، وكيفيَّةُ التَّغلُّبِ عليهِ، فكان التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ مرتعًا خصبًا للبيانِ.

توجيهُ ﴿يَكُن﴾ بين النَّقصِ والتَّمامِ:

(كان): إمّا أن تكونَ ناقصةً، واسمُها ﴿عِشْرُونَ﴾، و﴿صَٰبِرُونَ﴾ صفةٌ لها، وخبرها ﴿مِّنكُمْ﴾، وإمّا أن تكونَ تامَّةً، وفاعلها ﴿عِشْرُونَ﴾، والجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنكُمْ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحال[1].

بلاغةُ قولِه: ﴿مِّنكُمْ﴾ تقديمًا وخطابًا:

العنايةُ بالمخاطَبين أولويَّةٌ قرآنيَّةٌ ولطفٌ في الخطابِ

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ للعنايةِ والرِّعايةِ بالمخاطَبين[2]، وللتَّلطُّفِ بهم، لاسيَّما أنَّ السّياقَ في تحريضِهم على مغالبةِ أعدائهم في حال كونهم قلَّةً وحالِ كونِ أعدائهم كثرةً، والضَّمير في ﴿مِّنكُمْ﴾ عائدٌ على النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين، وعلى كلِّ الأحوال لا يخفى ما تؤدّيه الجملةُ الشَّرطيَّةُ في النُّفوس من خلالِ تعليقِ النَّتائجِ على الأسبابِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالخبرِ عن الإنشاءِ:

عظائمُ الأمورِ في بداياتِها فإنْ أُحسِنَتِ البداياتُ؛ تكاملتِ النِّهاياتُ

قولُه تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ ظاهرُه الخبرُ، وحقيقتُهُ الإنشاءُ؛ "كَأَنَّهُ قالَ: إنْ يَكُنْ مِنكُم عِشْرونَ؛ فلْيَصْبِروا، ولْيَجْتَهِدوا في القِتالِ حَتَّى يَغْلِبوا مئتين، والَّذي يَدُلُّ على أنَّهُ لَيْسَ المُرادُ مِن هذا الكَلامِ الخَبَرَ؛ وُجوهٌ: الأوَّلُ: لَوْ كانَ المُرادُ منه الخَبَرَ؛ لَزِمَ أنْ يُقالَ: إنَّهُ لَم يَغْلِبْ قَطُّ مئتانِ مِنَ الكُفّارِ عِشْرينَ مِنَ المُؤْمِنينَ، ومَعْلومٌ أنَّهُ باطِلٌ. الثّاني: أنَّهُ قالَ: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾، والنَّسْخُ ألْيَقُ بالأمْرِ منه بالخَبَرِ. الثّالِثُ: قَوْلُهُ مِن بَعْدُ: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وذلك ترغيبٌ في الثَّباتِ على الجِهادِ، فثَبَتَ

(1) السّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 5/636.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 5/636.

أنَّ المُرادَ مِن هذا الكَلامِ هو الأمْرُ؛ وإنْ كانَ وارِدًا بلَفْظِ الخَبَرِ، وهو كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البَقَرَة: 233]، ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البَقَرَة: 228]"[1].

ونكتةُ التَّعبيرِ بالخبرِ عن معنى الإنشاءِ - وهو الأمرُ هنا - بيانُ تأكيدِ هذا الأمرِ، وأنَّه بمنزلةٍ لا يُقبَلُ معها التَّهاونُ أو التَّراخي أو التَّسويفُ أو الأخذُ بالرُّخصةِ، بل هو مقامٌ عظيمٌ يستدعي القيامَ بأعظمِ الأفعالِ لتحقيقِه على وجْهِه المطلوبِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردة ﴿يَغْلِبُواْ﴾:

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بمفردةِ ﴿يَغْلِبُواْ﴾ دونَ أن يقولَ: (يهزموا) أو (يقتلوا) أو (ينتصروا على مئتين)، وما إلى ذلك من ألفاظٍ؛ وذلك لأنَّ الغلبةَ تدلُّ على العظمةِ والشِّدَّةِ والتَّمكُّنِ في أصلِ اللُّغةِ[2]، وعليه فيكونُ الوعدُ لا للانتصارِ فحسبُ؛ لأنَّ الانتصارَ قد يكون يسيرًا، أو قريبًا من ذلك، أمّا الغلبةُ؛ فهي انتصارٌ عظيمٌ، وهذا إخبارٌ ووعدٌ من الله تعالى أنَّ المؤمنين إنِ استعانوا باللهِ، وصبروا؛ فإنَّهم يغلبون عشرةَ أضعافٍ، وهذا يُقوّي أنَّ الخبرَ مرادٌ به الأمرُ، والمعنى: إن استجبْتُم لأمرِ اللهِ؛ فأطعتموه؛ فإنَّه يجعلُكم غالبين على أعدائِكم، كما أنَّهُ ليس المطلوبُ بالغلبةِ على الأعداءِ قتلَهم وإبادتَهم، كما يظنُّ ذلك ضَعَفةُ العقولِ والقلوبِ، بل المرادُ الغلبةُ ثم هدايةُ المغلوبين لإنقاذِهم من عذابِ الدُّنيا والآخرةِ.

غلبةُ المؤمنين لأعدائِهم تمكُّنٌ وقوَّةٌ يُرادُ منها هدايةُ الخلقِ

غرَضُ العَطْفِ:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على السّابق لأداءِ غرضٍ بيانيٍّ، وهو زيادةُ التَّقريرِ، وتحقيقُ الاطمئنان لدى المخاطَبين، على أنَّهُ قد يجري بين الجمْعَيْنِ

الإيماءُ إلى أنَّ خرقَ السُّننِ الاجتماعيَّةِ لا يصدُرُ إلّا عن خبيرٍ عليمٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/157.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (غلب).

القليلَيْنِ ما لا يجري بين الجمعينِ الكثيرَيْنِ، مع التَّفاوتِ بينهما على نسبةٍ واحدةٍ، فبيَّنَ أنَّ ذلك لا يتفاوتُ في الصّورتيْنِ[1]، فغرضُ العطفِ دفعُ أيِّ احتمالٍ يجري في الذِّهن والتَّجربة من أنَّ ما يتحقَّقُ في الجمعِ اليسير قد لا يتحقَّق في الجمعِ الكثير، ففيه إيماءٌ إلى وعدٍ كريمٍ هو من قبيل خرقِ السُّننِ الاجتماعيَّةِ الَّتي لا تكونُ إلّا بقدرةِ حكيمٍ عليمٍ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

التَّأنيثُ اللَّفظيُّ والتَّذكيرُ المعنويُّ لا يتعارَضان بل يتعاضَدان

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم﴾ قراءتانِ، فقد قَرَأ الكوفيّونَ، والبَصْريّانِ بالياءِ على التَّذْكيرِ، وقَرَأ الباقونَ بالتّاءِ على التَّأْنيثِ[2]، "فَمن أنَّثَ فلتأنيثِ المئةِ، ومن ذكَّرَ فلأنَّ المئةَ وقعت على عددٍ مُذَكَّرٍ، وأُخْرَى وهي: أنّه لمّا حُجِز بَين الاسْم والفِعْل بحاجزٍ؛ ذكَّرَ الفِعْل؛ لأنَّ الحاجزَ صارَ كالعوضِ منه"[3].

بلاغةُ الاحتباكِ بين الجُملتينِ الشَّرطيَّتينِ:

إرشـادُ القليل إلى الـصَّـبرِ إلـهـابٌ لـهـم، وتـحـفـيـزٌهـم بالغَلَبَة تنشيطٌ لهُم

في قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ زيادةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على الجملةِ السّابقةِ، وفي الجملةِ السّابقةِ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ زيادةُ نعتِ المؤمنين بقولِه: ﴿صَٰبِرُونَ﴾، فيُستدلُّ من كلِّ جملةٍ على المحذوفِ في الأخرى، فيكونُ تقديرُ الجملتيْنِ: إنْ يكن منكم عشرونَ صابرونَ؛ يغلبوا مئةً من الذين كفروا، وإن يكنْ منكم مئةٌ صابرةٌ؛ يغلبوا ألفًا من الذين كفروا، وهذا احتباكٌ بديعٌ، يقول أبو حيّان: فانظر إلى فصاحةِ هذا الكلامِ حيثُ أثبتَ قيدًا من الجملةِ الأولى، وحذفَ نظيرَهُ من الثّانية، وأثبتَ قيدًا في الثّانية،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/111 - 112.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.
(3) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 313.

وحذفه من الأولى، ولمّا كان الصَّبرُ شديدَ المطلوبيَّةِ؛ أثبتهُ في أولى جملتي التَّخفيف، وحذفَهُ من الثّانيةِ لدلالة السّابقةِ عليه[1].

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

و﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بيانيَّةٌ حيثُ بيَّنتِ المرادَ بعددِ الألفِ[2].

نكتةُ التَّعريفِ بالاسمِ الموصولِ:

التَّعريفُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع جملةِ صلتِه ﴿كَفَرُواْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إيماءٌ لما سيأتي من وصفِهم بأنَّهم لا يفقهون[3]، حيثُ كان تعليلُ كفرِهم بكونِهم لا يفقهون، فهناك تلازمٌ بين الكفرِ وعدمِ الفقهِ، وليس المقصودُ بالفقهِ هاهنا مطلقَ الفهمِ، بل ما يخصُّ العقلَ والحكمةَ في فهمِ المطلوبِ من العبادِ، أن يعملوه لدارِ المعاد.

التَّلازمُ بين الكفرِ وعدمِ الفقهِ في الدّينِ مؤدّاهُ الهزيمةُ والخسارةُ

حكمةُ اختيارِ هذه الأعدادِ في الآيةِ الكريمةِ:

سألَ بعضُ المفسِّرين عن اختيارِ هذه الأعدادِ، وهي العشرونَ في مقابلِ المئتين، والمئةُ في مقابلِ الألفِ، مع أنَّ "حاصلَه وُجوبُ ثَباتِ الواحدِ في مُقابَلَةِ العَشَرَةِ، فما الفائدَةُ في العُدولِ عَنْ هذه اللَّفْظَةِ الوَجيزَةِ إلى تِلْكَ الكَلِماتِ الطَّويلَةِ؟ وجَوابُهُ: أنَّ هذا الكَلامَ إنَّما وَرَدَ على وفْقِ الواقِعَةِ، وكانَ رَسولُ اللّه يَبْعَثُ السَّرايا، والغالِبُ أنَّ تِلْكَ السَّرايا ما كانَ يَنْتَقِصُ عَدَدُها عَنِ العِشْرينَ، وما كانَتْ تَزيدُ على المئةِ، فلِهذا المعنى ذَكَرَ اللّه هَذَيْنِ العددين"[4]، ويُقوّي هذا الوجهَ أنَّ حكمَ الآيةِ قد خُفِّف فيما بعدُ، فيكون اختيارُ هذه الأعداد لمناسبةٍ واقعيَّةٍ من شأنِها تربيةُ الجيلِ المسلم في ذلك الوقتِ بما يتناسبُ مع وضعه الذي يعيشُ.

تربيةُ القرآنِ للمؤمنين يُحقِّقُ غاياتِ الدَّعوةِ وأهدافَ المرحلةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/349.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/45.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/68.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/158.

دلالةُ الباءِ السَّببيَّةِ:

الفقهُ المعتبرُ هو الَّذي يقودُ صاحبَهُ إلى النَّجاةِ في الدّارين

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ سببيَّةٌ، كأنَّه قال: إنَّهم قومٌ مغلوبون؛ لأنَّهم لا يفقهون، ومعنى ذلك: أنَّه بسببِ أنَّهم قومٌ جهلةٌ باللّه تعالى وباليوم الآخرِ لا يقاتلونَ احتسابًا وامتثالًا لأمرِ اللّه تعالى وإعلاءً لكلمتِه وابتغاءً لرضوانه، كما يفعلُ المؤمنونَ، وإنَّما يقاتلونَ للحميَّةِ الجاهليَّةِ واتِّباعِ خطواتِ الشَّيطانِ، وإثارةِ ثائرةِ البغي والعدوانِ، فلا يستحقّونَ إلّا القهرَ والعدوانَ[1].

العبرةُ بفقهِ المآلاتِ لا بتحقيقِ الشَّهواتِ

وتَقْريرُ هذا الكَلامِ مِن وُجوهٍ:

الوَجْهُ الأوَّلُ: أنَّ مَنْ لا يُؤْمِنُ باللّه، ولا يُؤْمِنُ بالمَعادِ، فإنَّ غايَةَ السَّعادَةِ والبَهْجَةِ عندهُ لَيْسَتْ إلّا هذه الحَياةَ الدُّنْيَويَّةَ، ومَنْ كانَ هذا مُعْتَقَدَهُ؛ فإنَّهُ يَشِحُّ بهذه الحَياةِ، ولا يُعَرِّضُها لِلزَّوالِ، أمّا مَن اعْتَقَدَ أنَّهُ لا سَعادَةَ في هذه الحَياةِ، وأنَّ السَّعادَةَ لا تَحْصُلُ إلّا في الدّارِ الآخِرَةِ، فإنَّهُ لا يُبالي بهذه الحَياةِ الدُّنْيا، ولا يَلْتَفِتُ إلَيْها، ولا يُقيمُ لَها وزْنًا، فيُقْدِمُ على الجِهادِ بقَلْبٍ قَويٍّ وعَزْمٍ صَحيحٍ، ومَتَى كانَ الأمْرُ كَذلك؛ كانَ الواحِدُ مِن هذا البابِ يُقاوِمُ العَدَدَ الكَثيرَ مِنَ البابِ الأوَّلِ.

الوَجْهُ الثّاني: أنَّ الكُفّارَ إنَّما يُعَوِّلونَ على قوَّتِهم وشَوْكَتِهم، والمُسْلِمونَ يَسْتَعينونَ برَبِّهم بالدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ، ومَنْ كانَ كَذلك؛ كانَ النَّصْرُ والظَّفَرُ به ألْيَقَ وأولَى.

الوَجْهُ الثّالِثُ: وهو أنَّ كُلَّ قَلْبٍ اخْتَصَّ بالعِلْمِ والمَعْرِفَةِ؛ كانَ صاحِبُهُ مَهيبًا عند الخَلْقِ، وما ذاكَ إلّا أنَّ الآدَميَّ بسَبَبِ ما فيهِ مِن نورِ العَقْلِ يَكونُ مَهيبًا، ورُبَّما قَوِيَ عند ظُهورِ التَّجَلّي في قَلْبِه على أعْمالٍ يَعْجِزُ عَنْها قَبْلَ ذلك الوَقْتِ[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/45.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/158.

بلاغةُ الاستئنافِ:

الاستئنافُ مقوٍّ للنَّسخِ ومبيِّنٌ للبدل

جملةُ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ منفصلةٌ عن الجملةِ السّابقةِ على الاستئنافِ النَّحوي، وهو ما يؤيِّدُ القولَ بوقوع النَّسخِ فيها، وهو رأيُ جمهورِ العلماءِ، ولم يخالفْ في ذلك إلّا نفرٌ قليلٌ، وفيها نسخٌ إلى حكمٍ أقلَّ؛ تخفيفًا على المؤمنين، فبين النّاسخِ والمنسوخِ تراخٍ زمنيٌّ، والاستئنافُ أنشأ حكمًا جديدًا، هو مرتبطٌ بالحكمِ السّابقِ من حيثُ الكلُّ، وجديدٌ من حيثُ التَّفصيلُ.

معنى ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾:

ظرفٌ زمانيٌّ فاصلٌ بين مرحلَتَيْنِ

﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾: اسمُ ظرفٍ للزَّمانِ الحاضرِ، قيل: أصلُهُ: أوانٌ بمعنى زمانٍ، ولمّا أُريد تعيينُهُ للزَّمانِ الحاضرِ لازمته لامُ التَّعريفِ بمعنى العهدِ الحضوريِّ، فصارَ مع اللّام كلمةً واحدةً، ولزمَهُ النَّصبُ على الظَّرفيَّةِ، والوقتُ المستحضرُ بقولِهِ: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ﴾ هو زمنُ نزولِها، وهو الوقتُ الَّذي علمَ اللّهُ عنده انتهاءَ الحاجةِ إلى ثباتِ الواحدِ من المسلمينَ للعشرةِ من المشركين، بحيثُ صارتِ المصلحةُ في ثباتِ الواحد لاثنين، لا أكثرَ، رفقًا بالمسلمين واستبقاءً لعددهم[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّخفيفِ:

التَّخفيفُ دليلُ الرَّحمةِ الممزوجةِ بإرادةِ التَّربيةِ

أضفى التَّعبيرُ بمفردةِ ﴿خَفَّفَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ ما يحملُهُ مِنَ السُّرورِ والبهجةِ في قلوبِ المؤمنين، بعد أن ثقُلتْ عليهم مواجهةُ الأعداءِ بعُشرِ العددِ، وأشار استعمالُ هذه المفردةِ إلى ما يُقابلُها من معنى الثِّقَل المستكنِّ في الحكم السّابقِ، وغايةُ التَّخفيف بعد إثقالِ الحكم على المؤمنين، تبليغُهم درجاتِ الرِّضا والطّاعة، ونزعُ فتيل المعصيةِ والاعتراضِ من القلوب، فدلالةُ هذه المفردة في هذا السّياق دلالةٌ نفسيَّةٌ أتَتْ على الضِّدَّين من التَّخفيفِ بعد الثِّقل، والمؤمنون في الحالين في درجاتِ الرِّضا آمنونَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/69.

سرُّ تقديمِ فعلِ ﴿خَفَّفَ﴾ على لفظ الجلالةِ:

ظَفِرَ المؤمنونَ بالفوزِ برضوانِ اللهِ عندَ التَّكليفِ وعندَ التَّخفيفِ

قُدِّمَ فعلُ ﴿خَفَّفَ﴾ على الفاعلِ لفظِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾؛ لبيانِ العنايةِ بالحكمِ اللّاحقِ، وللمسارعةِ بالتَّبشيرِ، فإنَّ إخبارَ المخاطَبين بالحكمِ الجديدِ فيهِ بشارةٌ، فحسُن تقديمُها، وهو ما يُشير إلى أنَّ المؤمنين كانوا متشوِّقين إلى نزولِ مثل هذا الحكمِ، وهو ما يُصوِّر فرحتَهم بأمرين؛ بالتَّخفيف عنهم، وبأنَّهم قد فازوا برضوانِ اللهِ عندما كلَّفهم أن يقاتلَ الواحدُ منهم عشرةً من الكافرين.

دلالةُ بناءِ الفعلِ للفاعلِ:

معرفةُ عنايةِ اللهِ تعالى بعبادِه بالتَّصريحِ توزِّثُ الطُّمأنينةَ والسَّكينةَ

بُنِي الفعلُ للفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ دونَ البناءِ للمفعولِ، فلم يقل: (خُفِّفَ عنكم)، وذلك لأنَّ التَّصريحَ بالاسم الجليلِ يورِّثُ في قلوبِ المؤمنين مزيدَ الرَّحمةِ، فاللهُ سبحانه هو الَّذي أراد التَّخفيفَ، والنَّصُّ على الفاعلِ مرادٌ في هذا السّياق، فهو معلومٌ بداهةً، لكنَّ التَّصريحَ به يُرادُ منه استشعارُ العنايةِ والرِّعايةِ تصريحًا لا تلويحًا، وعبارةً لا إشارةً.

معنى الواوِ ودلالتُها:

تخفيفُ اللهِ عن عبادِه تربيةٌ تدريجيَّةٌ لتحقيقِ رضاه

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾ واو الحال، والجملةُ منصوبةٌ على الحاليَّة، أي: خفَّفَ عنكم، والحالُ أنَّه يعلم ضعفَكم، وحملُ الواوِ على العطف قد يوردُ فهمًا غيرَ مرادٍ من أن يكون علمُهُ تعالى حادثًا بعد حصول ضعفِهم مع أنَّ ضعفَهم متحقَّقٌ[1]، والمصدرُ المؤوَّلُ من أنَّ واسمِها وخبرِها سدَّ مسدَّ مفعولَيْ ﴿وَعَلِمَ﴾[2].

بلاغةُ الإطنابِ:

عدلَ النَّظْمُ عن أن يُقالَ: (وعَلِمَ ضَعْفَكُم) مع إيجازِه اللَّفظيِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/70.

(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 3/168.

إلى ما جاءَ عليه النَّظمُ الكريمُ ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، وذلك لدفعِ التُّهمةِ عن المؤمنينَ، فلو قال: (وعلمَ ضَعفَكم) لظُنَّ أنَّ الضَّعفَ أصيلٌ فيهم، ولظُنَّ أنَّ ضعفَهم عامٌّ يشملُ أبدانَهم وقدرتَهم على القتالِ وإيمانَهم، فإنَّ الضَّعفَ "قد يكونُ في النَّفسِ وفي البدن وفي الحال"[1]، فلمّا قال: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ عُلِمَ أنَّ الضَّعفَ المرادَ مقيَّدٌ بضعفِ قتالِ الواحدِ للعشرةِ المأخوذ من السّياق، وهو ضعفٌ طارئٌ لا أصيلٌ، وهو الأوفقُ بمقامِ خطابِ المؤمنين الذين جاهدوا في سبيل اللّهِ آخذين بالعزيمةِ، فإنَّ جزاءَ المحسنِ الإحسانُ إليهِ، وهذا ما دلَّ عليه النَّظمُ البديعُ.

ضعفُ المؤمنينَ طارئٌ لا أصيلٌ، وهو مقيَّدٌ بقتالِ الواحدِ للعشرةِ

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على اسم ﴿أَنَّ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ على المبتدأ؛ للعنايةِ بهم والاهتمام بشأنِهم، فما كان هذا التَّخفيفُ في الحكمِ إلّا رحمةً بهم، فهم المقصودونَ بهذهِ الرُّخصةِ وهذا التَّخفيفِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿ضَعْفًا﴾:

تنكيرُ لفظِ ﴿ضَعْفًا﴾ إمّا أن يُحملَ على التَّنويعِ، وهو ضعفُ الرَّهبةِ من لقاءِ العدد الكثير في قلَّةٍ[2]، وإمّا أن يُحملَ على معنى التَّكثيرِ أو التَّعظيم باعتبارِ كثرةِ الضُّعفاءِ أو عظمةِ البلاء،

والصَّحيحُ أنَّ غرضَ التَّنكيرِ محمولٌ على التَّنويع، والمرادُ به هنا ما أفصحَ عنهُ السّياقُ من ضعفِ لقاءِ الأعداءِ في حالِ أنَّهم عشرةُ أضعافِ المؤمنين.

التَّنكيرُ محمولٌ على التَّنويعِ لا التَّعظيمِ

سرُّ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿ضَعْفًا﴾:

لسائلٍ أنْ يسألَ عن سرِّ وصفِ المؤمنين بالضَّعفِ؟ وهل يوصَف بمن يواجهُ عشرةَ أضعافِه بالضَّعفِ؟ فعند تدبُّرِ ما أصابَ المؤمنينَ

اجتماعُ المَدْحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ والتَّعريضَ بالآخرين

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 222.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/70.

لا يجدُهُ ضعفًا بشريًّا اعتياديًّا، بل هو ضعفٌ نادرُ الحدوثِ بين البشرِ، ولو نُظِرَ إليهِ من جانبِ الاعتيادِ، فليس ضعفًا؛ فيُسألُ عن سرِّ ذلك الوصفِ؟

والجوابُ: أنَّ هذا الوصفَ هو من قبيلِ المدحِ بما يُشبهُ الذَّمَّ؛ فلا تجدُ أحدًا يصفُ شخصًا لا يُجابهُ عشرةَ أضعافِه بالضَّعيفِ، فباتَ هذا الوصفُ مدْحًا للمؤمنين عند المقارنةِ بغيرِهم ممَّن يضعفُ عن مجابهةِ الاثنين والثَّلاثة، وهذا من أدقِّ مسالك المَدْحِ بما يُشبه الذَّمَّ، وفيه تعريضٌ بغيرِهم ممَّن يضعفُ عن القليلِ من المؤمنين، وممَّن اشتكى من أقلَّ من ذلك، وفيه تنبيهٌ لعمومِ المؤمنين في قابلِ الأيّامِ، بأنَّ اللّٰه تعالى لم يُكلِّفْهم ما كلَّف المؤمنين في بدايةِ الجهادِ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِه: ﴿ضَعْفًا﴾:

تخفيفُ الأحكامِ يَلحقُ بعمومِ الأمَّةِ وأفرادِها

قرأ عاصمٌ وحمزةُ وخلفٌ بفتح الضّاد: ﴿ضَعْفًا﴾، وقرأ أبو جعفر بضمِّ الضّادِ وفتح العيْنِ والفاء وبعدها ألفٌ، وبعد الألفِ همزةٌ مفتوحةٌ غيرُ منوَّنةٍ ﴿ضُعَفَآءَ﴾، وقرأ الباقون بضمِّ الضّادِ ﴿ضُعْفًا﴾[1].

وتوجيهُ تلك القراءاتِ: أنَّ (الضَّعف) و(الضُّعف) لغتانِ من لغاتِ العربِ، وليس كما قيلَ بالتَّفرقةِ بينهما بأنَّ لغةَ الضَّمِّ تفيدُ ضعفَ البدنِ، ولغةُ الفتحِ تفيدُ ضعفَ الرَّأي والعقل[2]، وعلى قراءةِ ﴿ضُعَفَآءُ﴾ يكونُ المعنى: أنَّ علَّةَ التَّخفيفِ هي وجودُ الضُّعفاء المحَدَّدين المعروفين بينكم، وليس المقصودُ حالةَ الضَّعفِ عمومًا.

والقراءتانِ بينهما تكاملٌ عجيبٌ، فقراءةُ الجمهورِ تُسلِّط الضَّوء على وجود الضَّعفِ، بينما قراءةُ ﴿ضُعَفَآءُ﴾ فهي تُشير إلى وجودِ بعض الضُّعفاء بينهم، وأنَّه لأولئك كان التَّخفيفُ، فقراءةٌ تناولتِ الضَّعفَ بمفهومِه العامِّ، وقراءةٌ أشارت إلى وجودِ بعض الضُّعفاءِ.

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 816، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/71.

معنى الفاءِ:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾ تفريعيَّةٌ، فهي تفريعُ ما بعدَها على ما قبلَها، فإنَّ التَّخفيفَ يقتضي بيانَ مآلِ الحكمِ بعد تخفيفِه، وتوضيحَ ما لَحِقَهُ من تفصيلٍ.

غرضُ استعمالِ (إنْ) دون (إذا):

تحفيزُ المؤمنين على الصَّبرِ لبلوغِ النَّصرِ

إيثارُ استعمالِ (إنْ) دون غيرِها من أدواتِ الشَّرطِ في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ قدرةَ المؤمنين متفاوتةٌ في تحقيق الالتزامِ بالصَّبرِ، فليس المؤمنونَ على درجةٍ واحدةٍ في الصَّبرِ على الشَّدائدِ، فكان استعمالُها يُفيدُ إلهابًا وتحفيزًا للمخاطَبين على الصَّبرِ، كأنَّه قال: إن صبرْتُم وأخذتم بالأسبابِ المعنويَّةِ والماديَّةِ، فإنَّ مئةً تغلبُ مئتينِ، وإن كانتِ الأخرى من عدمِ الصَّبرِ، فالأخرى من عدمِ النَّصرِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ:

شـأنُ الأحكـامِ الـنّـاسـخـةِ الاسـتـمـرارُ والتَّجدُّدُ في حياةِ الأمَّةِ

الجملتانِ المتفرِّعتانِ بعد (إنْ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ شرطيّتانِ، وفعلا الشَّرطِ وجوابُهما أتيا على صيغة الفعليَّةِ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ لأنَّ هذا الحكمَ باقٍ غيرُ منسوخٍ، وقد يدلُّ على استحضارِ الصّورةِ أيضًا، ولا مانعَ من تعدُّدِ الأغراضِ البيانيَّةِ، فإنَّ النِّكاتِ لا تتزاحمُ.

تَوجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ:

قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ بياءِ التَّذكيرِ في ﴿يَكُن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾، وقرأ الباقونَ بتاءِ التَّأنيثِ[1]، وهذا كما في الآيةِ الَّتي سبقتها معتمِدٌ على النَّظرِ: أهو إلى ظاهرِ اللَّفظِ أم إلى المعنى؟ أي: إلى اعتبارِ التَّأنيثِ المجازيِّ على معناهُ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/277.

أو على لفظه، وبناءً - كذلك - على توسُّطِ ﴿مِّنكُم﴾ بين الفعلِ والعددِ ممّا يشكِّلُ فاصلًا بين الفعلِ والعددِ، وعلى القراءتين فاللَّفظُ والمعنى معتبران.

معنى حرفِ (من):

المطلوبُ من الأمّةِ إعدادُ فئاتٍ من المؤمنينَ للقتالِ والمغالبةِ

تحتملُ (من) في قوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم﴾ أن تكونَ للتَّبعيضِ، ومعناه: استعدّوا وتجهَّزوا؛ ليكونَ منكم من يكونُ أهلًا لقتالِ الكافرين، فيصبرُ عندَ المغالبةِ، وتحتملُ أن تكونَ للبيانِ، ومعناهُ: كونوا مستعدّينَ للقتالِ، واصبروا، والتَّبعيضُ أسعدُ دلالةً من البيانِ، فإنَّ عمومَ النُّصوصِ القرآنيَّةِ والمقاصدِ الشَّرعيَّةِ تدلُّ على هذا المعنى.

غرضُ تَكرارِ المعنى الواحدِ مرَّتين قبلَ التَّخفيفِ وبعده:

الدَّلالةُ على أنَّ الحالَ واحدةٌ لا تتفاوتُ

يقولُ الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: لمَ كرَّرَ المعنى الواحدَ، وهو مقاومةُ الجماعةِ لأكثرَ منها مرَّتين قبل التَّخفيف وبعده؟ قلتُ: للدَّلالة على أنَّ الحالَ مع القلَّةِ والكثرةِ واحدةٌ لا تتفاوتُ؛ لأنَّ الحالَ قد تتفاوتُ بين مقاومة العشرين المئتينِ والمئةِ الألفَ، وكذلك بين مقاومة المئةِ المئتينِ والألفِ الألفين"[1].

بلاغةُ الاحتباكِ:

المذكوراتُ في بابِ الاحتباكِ أولى من المحذوفاتِ مع إغناءِ كلِّ مذكورٍ عن المحذوفِ

في قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ احتباكٌ؛ فقد وُصِفَ قولُهُ تعالى: ﴿مِّاْئَةٌ﴾ بالصَّبرِ، ولم يوصفْ قولُهُ: ﴿أَلْفٌ﴾ بذلك، كما أنَّه قُيِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ﴾ بقيدِ ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾، ولم يُقيَّدْ قولُهُ تعالى: ﴿يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ﴾ بذلك، فتقديرُ الاحتباكِ: فإن يكنْ منكم مئةٌ صابرةٌ؛ يغلبوا مئتينِ بإذنِ اللهِ، وإن يكن منكم ألفٌ صابرةٌ؛ يغلبوا ألفين بإذنِ اللهِ، وسرُّ ذلك أنَّ التَّنويهَ بالصَّبرِ في حقِّ المئةِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/223.

أشدُّ احتياجًا، كما أنَّ الغلبةَ على الألفين أحوجُ إلى قيدِ ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾، فذكرَ لكلِّ لفظٍ ما هو أولى اعتناءً من الآخرِ؛ للتَّنبيه على أهمّيَّتِه، مع إغناءِ كلِّ مذكورٍ عن المحذوفِ.

براعةُ استعمالِ قيدِ: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ ذكرًا وحذفًا:

التَّنبيهُ بذكرِ القيدِ لدفعِ الأوهامِ وحذفُهُ لمعرفتِهِ ضرورةً

معنى قولِه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: بأمرِه، ويجوزُ أن يُرادَ بِهِ الأمرُ التَّكوينيُّ باعتبارِ صورة الخبرِ والوعدِ، ويجوزُ أن يُرادَ بِهِ الأمرُ التَّكليفيُّ باعتبارِ ما تضمَّنهُ الخبرُ من الأمرِ[1]، والباءُ يمكن أن تكونَ سببيَّةً، فهذا التَّخفيفُ ما كان إلّا بسببِ هذا الإذنِ، وشبهُ الجملةِ (الجارُّ والمجرورُ) في موقعِ الحالِ من ضميرِ ﴿يَغۡلِبُوٓاْ﴾، وصرَّحَ بالإذنِ هنا دونَ الآيةِ المنسوخةِ مع أنَّ كليهما مرهونٌ بإذنِ اللهِ؛ لأنَّ غَلَبَ الواحدِ للعشرةِ أظهرُ في الخرقِ للعادةِ، فيُعلم بدءًا أنَّهُ بإذنِ اللهِ، وأمّا غَلَبُ الواحدِ الاثنين، فقد يُحسبُ ناشئًا عن قوَّةِ أجسادِ المسلمين، فنبَّهَ على أنَّهُ بإذنِ اللهِ ليُعلمَ أنَّهُ مضطردٌ في سائرِ الأحوالِ[2].

معنى الواوِ ودلالته:

دلالةُ حرفِ الواوِ بين الاعتراضِ والحالِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إمّا أن تكونَ اعتراضيَّةً تذييليَّةً لتقريرِ مضمونِ ما قبلها[3]، وإمّا أن تكونَ الواوُ حاليَّةً، ويصيرُ المعنى: تحصل لكم الغلبةُ بهذه الكيفيَّةِ بإذنِ اللهِ والحالُ في هذا كلِّه أنَّ اللهَ مع الصّابرين.

نكتةُ إظْهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

جريانُ الجملةِ مجرى المثلِ السّائرِ

أُظْهِرَ الاسمُ الجليلُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولم يقل: (وهو مع الصّابرين) مع تقدُّمِ ذكرِه في قولِه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾؛ للنَّصِّ على حضورِ هيبةِ الجلالِ والجمالِ المُكتنزة في الاسم الجليل، ولمكافأة الصّابرينَ بالتَّصريحِ باسمِ اللهِ تعالى في معيَّتِهم، ولإقامةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/72.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/112.

الجملةِ: ﴿وَٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مُقامَ الاستقلالِ، فتجري مثلًا سائرًا على الألسُنِ، بأنَّ اللهَ مع الصّابرين.

معنى المعيَّةِ:

نصرُ اللهِ للمؤمنينَ وتأييدُه لهم بصبرِهم وتحمُّلِهم الشَّدائدَ

المرادُ بالمعيَّةِ معيَّةُ نَصْرِه وتَأْييدِه، ويُشعر حرفُ ﴿مَعَ﴾ في دخولِه على لفظِ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بأصالتِهم من حيثُ إنَّهم المباشرون للصَّبر[1]، ولا شكَّ أنَّ هذه المعيَّةَ من شأنِها أن ترفعَ من قيمةِ فضيلةِ الصَّبرِ، وترفعَ من شأنِ الصّابرين، فهي معيَّةٌ مرتبطةٌ باللهِ تعالى لا بغيره.

توجيهُ قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الإنشاءِ:

الأمرُ بالصَّبرِ يأتي بالوعدِ لفاعلِه والوعيدِ لتاركِه

يرى ابنُ عطيَّةَ الأندلسيُّ أنَّ هذهِ الجملةَ الخبريَّةَ ﴿وَٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فيها معنى الإنشاءِ؛ لأنَّها تحوي وعدًا وحضًّا على الصَّبرِ، وفيها وعيدٌ لمن لا يصبرُ[2]، فكأنَّ هذهِ الجملةَ الخبريَّةَ قد حَمَلَتْ في منطوقِ حالِها أمرًا بالصَّبر ونهيًا عن تركِه.

بلاغةُ الاحتباكِ الإجماليِّ:

الآياتُ تتكاتفُ ويأخذُ بعضُها بعُرى بعضٍ في بيانِ المعاني والدَّلالاتِ

لم يُتعرَّضْ في قولِه تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ لحالِ الكفرةِ من الخذلان، كما لم يُتعرَّضْ في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لحالِ المؤمنينَ، مع أنَّ مدارَ الغلبةِ في الصّورَتَيْن مجموعُ الأمرين: نصرُ اللهِ المؤمنينَ، وخذلان الكفرةِ اكتفاءً بما ذُكِرَ في كلِّ مقامٍ عمّا تُرِكَ في المقامِ الآخر[3]، وهذا قريبٌ من الاحتباكِ، لكن على طريقِ الإجمالِ لا التَّفصيلِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/113.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 816.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/112.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحسْبُ والكفايةُ:

الحسْبُ مرحلةٌ سابقةٌ للكفايةِ الَّـتـي تـعـني الامتلاءَ بلا مزيدٍ

استعملَ القرآنُ الكريم كلماتٍ مقاربةً لقولِه تعالى: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ مثل قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ في نحو ستَّ عشرةَ مرَّةً، كانت الأولى ورودًا منهنَّ في سورة النِّساءِ في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦﴾ [النساء: 6]، حيثُ جمعت بين هاتيْنِ الكلمتين المتقاربتين، عِلمًا أنَّ سورةَ النِّساء هي - أيضًا - أكثرُ سورةٍ ذُكِرَ فيها (كفى بالله) حيثُ وردت تسعَ مرّاتٍ.

وكلمة ﴿حَسۡبُكَ﴾ أصلُها مادَّةُ (حسب) تعودُ لأربعِ أصولٍ: الأوَّلُ: العدُّ، تقول: حسِبتُ الشيءَ أحسُبُهُ حسْبًا وحُسبانًا، الثاني: الكفايةُ، تقول: شيءٌ حسابٌ، أي: كافٍ، الثّالث: الحُسبانُ، وهي جمعُ حُسبانةٍ، وهي الوسادةُ الصَّغيرةُ، والرّابعُ: الأحسبُ، وهو الَّذي ابيضَّتْ جلدتُهُ[1]، والمعنى المحوريُّ الَّذي تدورُ حولَهُ هذه الأصولُ هو: جمعُ ما هو منتشرٌ في حيِّزٍ يضمُّهُ حتى يمتلئَ بهِ[2]، ولا شكَّ أنَّ قولَهُ: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ يدورُ حولَ أصل الكفايةِ، ولم ترد هذه الصّيغةُ في القرآنِ إلّا في موضعين، والموضعانِ في هذه السّورةِ: الأوَّلُ: قولُه: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾، والآخرُ: قولُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وأمّا أصلُ (كفى)؛ فهو يدلُّ على الحَسْبِ الَّذي لا مستزادَ فيهِ[3]، والمعنى المحوريُّ لـ(كفى): بلوغُ الامتلاءِ أو النُّمو إلى الكمال المناسبِ دونَ زيادةٍ[4]، ومعنى ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝١٦٦﴾ [النساء: 166]، أي: اكتفِ باللهِ[5]، على تضمينِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 263.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 1/426.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ص: 929.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 4/1904.
(5) الرّاغب، المفردات، ص: 330.

الفعلِ (كفى) فعلَ الأمرِ (اكتفِ)، فيصبحُ مجموعُ اللَّفظِ يُساوي قوَّةَ الفعلين، أي: اكتفِ باللّه كفايةً، وبناءً على ما تقدَّمَ يظهرُ جليًّا أنَّ الحسْبَ يأتي قبل الاكتفاءِ؛ لأنَّ الحسبَ يقومُ على الجمعِ في حيِّز، والاكتفاءُ هو حسْبٌ لا مُستزادَ فيه، وبهذا اختصَّتْ سورةُ الأنفالِ بهذا الحسْبِ الذي جاء مُؤَيَّدًا بنصرِ اللّه وبالمؤمنينَ في الموضعِ الأوَّلِ، وبالمؤمنين في الموضعِ الثّاني، وقد سبقَ هاتيْن الآيتيْنِ في السّورةِ الكريمةِ الأمرُ بالإعدادِ لأعداءِ اللّه بكلِّ أنواعِ القوى الممكنةِ، وهو نوعٌ منَ الجمعِ والإعدادِ يوصلُ إلى حالةِ الامتلاءِ والاكتفاءِ.

الفقهُ والعلمُ:

الفقهُ أخصُّ من العلمِ وأشملُ ويأتي بعد تأمُّلٍ

الفقهُ: هو التَّوصُّلُ إلى علمٍ غائبٍ بعلمٍ شاهدٍ، فهو أخصُّ من العلمِ[1]، والمعنى المحوريُّ الَّذي يدورُ حولَهُ أصلُ (فقه) هو: وصولٌ إلى حقيقةِ باطنِ الشَّيءِ؛ كما يعرفُ الفحلُ حال باطن النّاقة، ومن ذلك: "الفِقْه: العلمُ بالشَّيء وفهمُه" (فهمًا عميقًا مستوعبًا) وقد فقِهَ الشَّيءَ: كأنَّما غاصَ في داخلِه، فأدركَ دقائقَهُ وخفاياهُ[2]. والمعنى المحوريُّ لـ(علم) يقومُ على: الدِّلالةِ والهدايةِ بمرتفع إلى معنى: اتجاهٍ أو طريقٍ أو حدٍّ أو غيرِ ذلك، كما يدلُّ العَلَم في الصَّحراءِ على الاتِّجاهات والطُّرقِ والمواقعِ (وكما يُتَّخَذُ الجبلُ عَلَمًا على مثلِ ذلك)[3]، والعِلمُ اصطلاحًا هو: "إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتِه، وذلك ضربانِ: أحدُهما: إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثّاني: الحكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو موجودٌ لَهُ، أو نفي شيءٍ هو منفيٌّ عنه[4]".

فالفقهُ: "هو العلمُ بمقتضى الكلامِ على تأمُّلِه، ولهذا لا يُقال: إنَّ اللّه يفقهُ؛ لأنَّهُ لا يوصف بالتأمُّلِ، ولا يُستعمل إلّا على معنى الكلامِ،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 290.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 3/1703.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 3/1512.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 258.

ومنهُ قوله: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ٩٣﴾ [الكهف: 93]"[1]، وممّا يؤيِّدُ هذا الكلامَ ما جاء في سورة (المنافقون): ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون: 7 - 8] ففي سياقِ القولِ جاء ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ وفي سياقِ علم حقيقةِ الشَّيءِ جاء ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ولذا جاءَ في الآيةِ هنا في سورة الأنفالِ ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾؛ لأنَّ الكفّارَ يقيسون الأمورَ الغائبةَ عنهم كالنَّصرِ والغلبةِ بالأمورِ الحسّيَّةِ المشاهدة كالعَدَد والعُدَد، ولا يدركون حقيقةَ الأشياءِ، ولا يعلمونَ الغيب، فناسبَ هذا كلَّه مجيءُ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ هنا دونَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾.

الضَّعفُ والوهنُ:

الضَّعفُ يكونُ جِبلّيًّا بخلافِ الوهنِ فيكون جِبلّيًّا وكسبيًّا

الضَّعفُ قد يكونُ في النَّفسِ وفي البدنِ وفي الحالِ، والمعنى المحوريُّ الذي يدورُ حولَهُ الضَّعفُ: هو عدمُ القوَّةِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ [الروم: 54]، ﴿ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ﴾، ومن ذلك: "الضَّعيفُ الأعمى" وكلُّ ما في القرآنِ من الفعلِ (ضعُف) و(استضعف) ومضارعِه للفاعل والمفعول، وكلمةُ (ضَعْف) بالفتح، والصِّفةُ (ضعيف) وجمعُها (ضِعاف) و(ضُعفاء)، وكذلك صفةُ التَّفضيل (أضعف)، واسم المفعول (مستضعف) وجمعه كلُّ ذلك من الضَّعف: وهو عدمُ القوَّة[2]، بينما يدورُ المعنى المحوريُّ للوهنِ حول: ضعفِ تماسكِ البدنِ أو الشَّيءِ من اشتمالِه على رخاوةٍ ولذهابِ الصَّلابةِ منهُ، كالعظمِ الواهنِ وكالمرأةِ والطّائرِ الذي ذهبت قوَّتُه[3]، والوهنُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 102.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 3/1289.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: 4/2327.

اصطلاحًا: "ضَعْفٌ من حيثُ الخَلْقُ أو الخُلُق[1]"، وقد وردت مرّاتٍ عديدةً في القرآنِ الكريمِ في مثلِ قولهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: 4] وقوله: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٤١﴾ [العنكبوت: 41] وقوله في بدايةِ هذهِ السّورةِ: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٨﴾ [الأنفال: 18].

والفرقُ بينَ اللَّفظتين: أنَّ الضَّعفَ ضدُّ القوَّةِ، وهو من فعلِ اللّٰه تعالى والوهنُ هو أن يفعلَ الإنسانُ فعلَ الضَّعيفِ، وهو قويٌّ قادرٌ، والوهنُ - أيضًا - انكسارُ الحدِّ والخوف ونحوهِ، والضَّعفُ نقصانُ القوَّةِ[2]، وعلى هذا فالوهنُ قد يكونُ كسبيًّا أحيانًا بسببِ إهمالِ أسبابِ القوَّةِ، فيسبِّب ضعفَ البدنِ أو ضعفَ الأمَّةِ، ولكنَّ الآياتِ السّابقةَ استعملت كلمةَ الضَّعفِ للتَّعبيرِ عن حالِ المؤمنين دونَ الوهنِ لبيانِ أنَّ هذا الضَّعفَ لا مَدْخَلَ لهم فيهِ، وأنَّهُ حالةٌ طبيعيَّةٌ وجبلّيَّةٌ في النُّفوسِ، وليس ناشئًا عن قصورٍ في همَّةِ المؤمنين أو تراخٍ في عزائمِهم، لذا لا تصلحُ كلمةُ الوهنِ أن تؤدّيَ هذا الغرضَ، وتقومَ بهذه المهمَّةِ في هذا الموضعِ الذي جاءت فيهِ.

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 416.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 132.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»